أَلمَدْلُولاتُ النَّفْسِيَّةُ فِي سُورَةِ يُوسُف

محمد مهدي ياسين الخفاجي

الكلية التربوية المفتوحة –ذي قار

فحوى البحث

يشير العنوان بكل وضوح الى فحواه. فهو بحث تطبيقي يتخذ من سورة يوسف في القرآن الكريم أنموذجا للانطلاق الى بحث يبرز المدلولات النفسية في شخوصها واحداثها يبدأ البحث الحديث عن الدلالات النفسية الألفاظ فيها معرجاً على موضوعة المدلول النفسي للرفد في القصة، ليدخل الى تفصيل الحديث عن شخصيات القصة وهم: النبي يوسف عليه السلام والنبي يعقوب عليه السلام وإخوة يوسف وامرأة العزيز والملك وغيرهم ، ليختم البحث بما توصل اليه الباحث من نتيجة.

المقدمة:

القصص ظاهرة في القرآن الكريم، ويشكل تكرار هذا المصطلح وحرص القرآن على وصفه بأحسن القصص، وافتخاره وتميزه بخصوصية الدقة في عرضها، وتكرار ذكر قصص الأقوام والأنبياء، وحرصه على ذكرهم ولو بالإشارة إلى أسمائهم أو أوصافهم، أو أهم الأحداث التي مروا بها.

نقول: إن هذه الظاهرة، تحتاج إلى وقفة ودراسة وتمعن في أبعادها النفسية ولو بصورة مقتضبة كما حصل في دراستنا هذه واتخذنا من قصة نبي الله يوسف عليه السلام أنموذجا ومن الله التوفيق.

أهداف القَصَص القرآنيّ

إن الهدف الأول من القصص القرآني لا يتجاوز المحور الأعظم لأهداف القرآن الكريم، ألا وهو كونه هداية للناس أجمعين فالقصة القرآنية تمثل جزءاً كبيراً من القرآن الكريم، وهي تتحد مع ما سواها مصدرًا وموضوعًا وغايةً، ولكن إذا ما أردنا شيئاً من التفصيل فإننا نستطيع أن نجمل أهداف القصص القرآني بالنقاط التالية وذلك من خلال ما أشارت إليه آيات القرآن الكريم متفرقة في معرض حديثها عن قَصص متعددة:

١. تثبيت قلب النبي صلى الله عليه وآله، قال تعالى: ﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ﴾[سورة هود: ١٢٠].

٢. إثبات صدق النبي صلى الله عليه وآله في رسالته؛ لأن دعوة الأنبياء واحدة ومنهجهم واحد، وبالتالي فإن النبي صلى الله عليه وآله كما قال جل شأنه: ﴿ قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ ﴾ [سورة الأحقاف: ٩] وقال أيضاً: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ۚ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾[سورة النحل: ٤٣].

٣. الاعتبار والاتعاظ من خلال النظر في سنة الله النافذة في هذا الكون، فالعاقبة دائما للمتقين، والبوار والخزي دائماً على الظالمين، وما أكثر الآيات التي تأمرنا بالسير في الأرض للنظر والاعتبار بعواقب وآثار الماضين، وفي هذا يقول سبحانه:

﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾[سورة يوسف: ١١١]

ومعنى العبرة: هو التأمل والاتعاظ والاعتبار بأن نقيسَ أنفسنا على السابقين ممن قصَّ الله علينا نبأهم بالحق، فنعلمَ أنَّ سنة الله ماضية فينا كما خلت في الذين من قبلنا، إن خيراً فخير.. وإن شراً فشر[1].

٤. تصحيح العقائد الفاسدة وتثبيت العقائد الصحيحة -ومحورها أمران: الإيمان بالله وحده، والإيمان بالبعث بعد الموت -، وهذا ظاهر من خلال دعوات الرسل والأنبياء جميعاً لأقوامهم.

٥. تقويم الخلق والسلوك الفردي والجماعي، وتحقيق خلافة الإنسان في الأرض، وهذا ظاهر من خلال معالجة كل نبي لصفة معينة في قومه (عدا الكفر) ان كان يسعى لإصلاحها؛ فالقصص يصوِّرُ مثلاً شناعة ما كان عليه قوم لوط.. وما كان عليه أهل مَدين.. وما كان عليه الطغاة والمفسدون من ظلم وجور ومنع للفقراء.. وتصوِّر أيضاً شناعة الحسد الذي حمل أحد ابني آدم على قتل أخيه.. وشناعة طبائع اليهود... وفي جانب آخر تصور ما كان عليه الأنبياء والصالحون من صبر وعدل وعطاء.. وكيف حقق سيدنا سليمان عليه السلام وغيره الخلافة في الأرض على أساس من العدل والخلق والاستقامة...

٦. وثمة أهداف أخرى كثيرة لمن تأملها من أولي الألباب، مثل التوكل على الله، لاسيما بالنسبة للدعاة والمصلحين، وانتهاج الأسوة الحسنة في الأنبياء، والتجمل بمكارم الأخلاق، وتعلم آداب الحوار، والجدال بالحسنى، وأساليب الدعوة إلى الله تعالى، وكيف يدخل الداعية إلى قلوب المدعوين، ومعرفة طبائع الناس عامةً عند كفرهم وإيمانهم، وطبائع أقوام بعينهم مثل بني إسرائيل، وكيفية التعامل معها، وتشخيص أمراض المنحرفين والمعاندين، وكيفية

(١) http:\\7awa.roro.com\\vb\1363

معالجتها، وغير ذلك [٢]...

الدلالات النفسية

للألفاظ في قصة يوسف عليه السلام:

إن قصة يوسف عليه السلام في القرآن هي قصة الشخصية والأحداث معاً؛ فهي لا تسجل واقعاً فحسب، بل تنتصر للقيم الإنسانية الجديرة بالخلود، إذ تنتصر للإيمان وللصبر وللعفاف وللأمانة وللإخلاص والطهر، وقد قام بالأدوار فيها شخصيات متباينة في السن، وفي المكانة الاجتماعية، ولكلٍ منها طابعها الخاص وفق التربية والتجارب التي مرت بكل منها؛ كالبراءة والحكمة والحسد والعلم [٣].

إن المتمعن في هذه القصة من القرآن يتلمس شحنات نفسية من أبطال القصة، ومن بعض كلماتها وإشاراتها؛ فكلمة «الصبر» مثلاً تجدها حاضرة دائماً على لسان يعقوب عليه السلام، والاستعاذة من الظلم على لسان يوسف عليه السلام، وتوكيد الإيمان على لسان أخوته، ولو نظرنا من منظورِ علم النفس لوجدنا سلوكاً متبايناً من شخصياتها، كالتبرير والإسقاط والكذب والغيرة والقلق والإحساس بالذنب، ونحو ذلك من الحيل النفسية اللاشعورية التي يلجأ لها الإنسان في معاملاته النفسية، والتي يسميها علم النفس «آليات عقلية»، يغالب بها المرء إحباطه وقلقه وتوتره الناشئ عن فشله، وهو يحاول تحقيق رغباته [٤]. فأخوة يوسف عليه السلام ضلوا ضحايا الكبت الذي عاشوه؛ كي يخفوا رغبتهم في التخلص من أخيهم يوسف؛ حتى يخلو لهم حب أبيهم، ولكنهم يفشلون في إخفاء وكبت هذه الرغبة؛ بل كثيراً ما تبدو فيما يصدر عنهم من تصرفات ومواقف وكلمات ضد يوسف؛ مما جعل يعقوب عليه السلام يشك في حسن نواياهم عندما دعوا يوسف إلى أن يلعب معهم؛ فقال لهم:

﴿ قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِيٓ أَن تَذْهَبُواْ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ

(٢) المصدر نفسه.

(٣) القصص في القرآن الكريم ص ١٢٣.

(٤) سيكلوجية القصة في القرآن: التهامي نقرة، تونس، الدار التونسية للتوزيع، الطبعة الثانية، ١٩٨٧، ص٥١٦.

غَٰفِلُونَ ﴾[سورة يوسف: ١٣].

وكان من نتيجة هذا الكبت ومعاناته أن انحرفوا بتفكيرهم، فكل ما يهمهم تحقيقه هو أن يحُولوا بين يوسف وأبيه؛ فكان اتفاقهم على قتله، وتلطيخ قميصه بالدم، وادعاء أن الذئب أكله لمَّا ذهبوا يتسابقون وتركوه عند متاعهم، غير أن التلفيق كان واضحاً؛ لأن القميص لم يكن ممزقاً بآثار أسنان الذئب؛ مما جعل يعقوب﵇ لا يصدقهم؛ ولهذا كان دائماً يدعوهم إلى أن يتقصوا آثار أخيهم، ولو أنه صدَّقهم في دعواهم لما أصر على أن يقتفوا آثاره، وقد وقعوا في حالة التبرير كما يفعل المذنب؛ إذ يعمد إلى تفسير سلوكه؛ ليبين لنفسه وللناس أن لسلوكه هذا أسباباً معقولةً، فهم يقولون: ﴿ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبۡنَا نَسۡتَبِقُ وَتَرَكۡنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئۡبُۖ وَمَآ أَنتَ بِمُؤۡمِنٖ لَّنَا وَلَوۡ كُنَّا صَٰدِقِينَ ﴾.

أما الإسقاط فهو حيلة يسقط بها المرء نقائصه وعيوبه على الآخرين، يهمُّه بالدرجة الأولى أن يلصقها بمن يظنه منافساً له مباشرةً، كالصديق الذي يغدر بصديقه ثم يتهمه بالغدر.

إذا كان هذا هو مفهوم الإسقاط في علم النفس فإن القرآن روى ذلك عن أخوة يوسف، وذلك حينما دس يوسف﵇ صواع الملك في متاع أخيه، وألقى القبض عليه بتهمة السرقة ليستبقيه دون أن يكشف لهم عن شخصيته فقالوا: ﴿ قَالُوٓاْ إِن يَسۡرِقۡ فَقَدۡ سَرَقَ أَخٞ لَّهُۥ مِن قَبۡلُۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفۡسِهِۦ وَلَمۡ يُبۡدِهَا لَهُمۡۚ قَالَ أَنتُمۡ شَرّٞ مَّكَانٗاۖ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴾[سورة يوسف: ٧٧]. وفي السورة آيات أخرى نستخلص من خلالها أدق النظريات التي جاء بها علم النفس الحديث [سورة يوسف ٧٢].

المدلول النفسي للرمز في قصة يوسف:

((شكل القميص رمزاً دلالياً بعيد الدلالة، فقد شكل نقاط تحولٍ بالقصة كاملة، وتكرر في ثلاث قصصٍ جزئية من قصة يوسف، من رؤياه الأولى إلى تحققها بسجود أبويه له. و المواقف التي ظهر بها القميص.

الأول: في المؤامرة التي حاكها أخوته ضده وهي رميه بالجب، وعودتهم إلى

أبيهم يحملون قميصه، وعليه دمٌ كذبٌ، فالقميص الملطخ بالدم هو كل ما تبقى من يوسف الغائب، لذا حمل في هذا الموقف «رمز الغياب»؛ وربما حمل دلالة الاحتيال والكذب؛ فقد استخدم هذا القميص الملطخ بالدم الكذب في الدلالة على الكذب؛ فجاء في الشعر العربي:

جفونك والدموع تجول فيها

وقلبك ليس بالقلب الكئيبِ

نظير قميص يوسف يوم جاءوا

على لباته بدمٍ كذوبِ

الثاني: وذلك حينما حاولت امرأة العزيزالدفاع عن نفسها، وصرف التهمة عنها بادعائها أن يوسف هو المُدانُ، بإرادته السوء بها؛ ولثبوتِ البراءةِ شهدَ شاهدٌ من أهلها، بأن قميصه إذا قُدَّ من أمام فهي صادقة، وهو كاذب، وإن كان قميصه قُدَّ من خلفٍ فإنه صادق وهي كاذبة. قال تعالى: ﴿ قَالَ هِيَ رَٰوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي ۚ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾، فصار هذا القميص هو القاعدة الأساسية التي بني عليها الحكم.

الثالث: حين عادوا بقميص يوسف إلى يعقوب عليه السلام؛ فقد حل القميص محل يوسف، فالقميص هو الذي يرد البصر إلى يعقوب عليه السلام . فهو من خلال هذا القميص يشم ريح يوسف، قال تعالى: ﴿ ٱذْهَبُوا۟ بِقَمِيصِى هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِى بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ ۖ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ ﴿٩٥﴾ فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا ۖ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾[٥].

المدلول النفسي للشخصيات في قصة يوسف عليه السلام:

تتكون القصة من عدة جزئيات من القصص المكونة للبناء التام لقصة يوسف عليه السلام، وهذه الجزئيات التي تشكلها شخصيات القصة، فيها انماط مختلفة من النفس البشرية، على مختلف الرتب والطبقات الاجتماعية والحياة الدينية، والنزعات المختلفة، فكل الشخصيات

(٥) القرآن نظرة عصرية جديدة ص ٢٢١.

الأخرى مأسورة بفكرة معينة أو بحالة نفسية منفردة.

أ. **يوسف**عليه السلام.

إن شخصية يوسف عليه السلام هي الشخصية المحورية بالقصة، وهي التي تدور حولها كل القصص المكونة لقصته عليه السلام.

ب. **يعقوب**عليه السلام.

هو ذلك الإنسان الحكيم الذي يمتلك بعد النظر ويستطيع أن يقرأ أو يستشعر ما سيحدث قال تعالى: ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، فحالته النفسية التي تتسم بالخوف على يوسف من أن يكيد له أخوته دعته لتحذيره منهم، وأن يكتم رؤياه عنهم؛ قال تعالى: ﴿قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيْدًا ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾.

ج. **أخوة يوسف**عليه السلام.

هم أخوة أخذت الغيرة منهم مأخذاً كبيراً، فغمر الحسد قلوبهم، فعملوا على تغييب أخيهم بالكيد له ورميه بالجب.

د. **امرأة العزيز**.

امرأة افتتنت، همها إشباع رغباتها، وفي النهاية تعود وتشهد لصالحه بعد سجنه.

ه. **الملك**.

تتحكم به فكرة الصراع، والاهتمام بشؤون دولته؛ لذا ظهرت في رؤياه السنابل والبقرات التي هي رمز للاقتصاد.

و. **السيارة «البدو»**.

هم مجموعة من البدو، حصلوا على غنيمة وأرادوا بيعها للحصول على المال.

ز. **الفتيان**.

هما صاحباه في السجن، وهما يمثلان الحياة اليومية، فأحدهما بائعٌ للخبز، والآخر عاصرٌ للخمر.

ح. **النسوة**.

هن نسوة بالمدينة يثرن الإشاعات على امرأة العزيز.

ط. **الشاهد**.

وهو الشاهد الذي أشار إلى القميص وموضع قدِّه، من القبل أم الدبر.

ونعود لشخصية يوسف عليه السلام؛ فهي الشخصية المحورية، فقد كان دوره تحرير الإنسان من الفكرة المسيطرة عليه، وهو يقف في وجه الحسد ودوافعه، ويواجه الدعوة لإشباع الشهوات خارج النظام

الأخلاقي والاجتماعي، وهو يوجه الملك إلى نظامٍ اقتصادي بديع، وعمل على الدعوة له عز وجل، ودعا لتحرير الإنسان من نوازعه الذاتية الضيقة[٦] فقد اختيرت هذه الشخصيات لربط الأسباب بمسبباتها في هذه القصة لتضع ابلغ المدلولات النفسية بعد ربطها بهذه الشخصيات على أساسين، فالكل هو متكون من مجموعة من الأجزاء التي تتركب وترتبط بعضها ببعض لتؤثر نفسياً في تكوين الكل.

المدلولات النفسية للتوكيد في قصة يوسف عليه السلام:

لم يكن أسلوب التوكيد في كلام العرب -على كثرته -لوناً من ألوان الزينة، أو شكلاً من أشكال الحشو الذي يرهق النص ويثقله بما لا فائدة منه ولا جدوى. وإنما هو ركن من أركان البناء اللغوي والبياني الذي زخرت به النصوص العربية شعراً ونثراً. فالعرب لا تؤكد كلامها إلا إذا كان المخاطب به حاجة إلى ذلك، وتأتي بمؤكد واحد إن كان المخاطب متردداً في تصديق ما يقال أو ظنَّ ذلك منه، في حين تأتي بأكثر من مؤكد -وقد تشفع ذلك بالقسم-إن كان المخاطب منكراً ما يسمع كل الإنكار أو ظنَّ منه ذلك.

سنتوقف أمام آيات من سورة يوسف عليه السلام نعرض خلالها مواقف من القصة، في محاولة منا لتلمس الوجه البياني الذي يمثله أسلوب التوكيد في السورة. ولنقف قبلاً أمام قوله تعالى ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ وفيه أول ما جاء مؤيداً بالتوكيد في سورة سيدنا يوسف عليه السلام.

ذكر الله تعالى إنزال القرآن مؤكداً بـ (إنَّ) ذلك أن كفار مكة -ومنهم اليهود الذين سألوا رسول الله صلى الله عليه وآله أن يقص عليهم قصة يوسف عليه السلام -كانوا يطعنون بصدق نبوته، وبأن القرآن هو كتاب منزل من الله تعالى. لذلك، وقبل البدء في القصة التي طلبوا سماعها من رسول الله صلى الله عليه وآله، جاء ذكر إنزال القرآن بأنه من

(٦) دراسة لاسلوب القصص القرآني – قصة يوسف عليه السلام نموذجاً: علي الطاهر عبد السلام ص٢٦ -٢٧.

عند الله مؤكداً بـ (إنَّ)، لنفي ما زعموه، وتسفيه ما ظنّوه.

أضف إلى ذلك أن إنزال القرآن الكريم على النبيﷺ أمر غيبي، والغيبيات تحتاج إلى ما لا تحتاج اليه المحسوسات من التوكيد، إذ يأتي التوكيد -عند ذكرها- رفعاً للشبهة ودفعاً للظنّ، ودرءاً للخاطر إن جاء مشككاً أو منكراً.

وفي قوله تعالى ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ ﴾ وقد جاء دون توكيد، إذ الأمر هنا ليس أمراً غيبياً، بل هو أمر محسوس يحمل في ذاته دلائل مصداقيته، وذلك في قصص القرآن الكريم كلها ومنها قصة يوسف (أَحْسَن الْقَصَصِ)، فلا حاجة إذاً للتوكيد، ما دام المثال ظاهراً، والدليل قائماً.

ولما أراد الله تعالى أن يخبرنا أن رسول اللهﷺ لم يكن يعرف شيئاً عن قصة يوسفعليه السلام جاء بلام التوكيد في قوله: ﴿وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴾ وذلك دفعاً لأي شك أو تردد في شأن معرفة النبيﷺ بهذه القصة قبل نزول القرآن عليه، فأكد غفلته عن الأمر تأكيداً لا يغضّ من قدر رسوله، بل يدل على صحة نبوته وصدق دعوتهﷺ(٧).

والأثر البلاغي لأسلوب التوكيد في مواقف من قصة يوسفعليه السلام قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِى سَٰجِدِينَ ﴾. بهذا أخبر سيدنا يوسف أباه عن أمر رؤياه، وجاء بكلامه مؤكداً بـ(إنّ)، ثم بتكرار فعل الرؤيا مرتين (رأيت -رأيتهم). وجاء هذا التوكيد في معرض الحديث عن أمر غير مألوف، فيه من الغرابة ما يُخشى معه أن يشك السامع في صدق ما يسمع، لذا جاء ذكر الرؤيا مقترناً بالتوكيد (إني رأيت -رأيتهم) دفعاً لشك قد يخامر سيدنا يعقوب في صدق ما يقوله هذا الغلام الصغير. يؤول سيدنا يعقوب رؤيا ابنه، ويطلب منه ألا يخبر إخوته بالأمر... إخوة يوسف يكيدون له ها هم

(٧) القرآن والشعر: دلال عباس. بيروت، دار المواسم للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ٢٠٠٠م ص١٢٥ -١٣٠.

إخوة يوسف يتشاورون في أمره (﴿ إِذْ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا ﴾). وجاؤوا بقولهم هذا مؤكداً بمؤكد واحد (اللام في ليوسف). ثم أكّدوا قولهم (﴿إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾) بمؤكدين (إنّ-اللام في لفي). وإخوة يوسف ليس بينهم من يشك أو يتردد في أن يوسف وأخاه أحب إلى أبيهم منهم، ولا بينهم منكر أن أباهم في ضلال مبين. فلماذا إذاً جاء الكلام مؤكداً وهم في غير حاجة إلى توكيد ما هم متفقون عليه ومجتمعون بسببه!؟. إن مجيء الكلام مؤكداً في قولهم (﴿ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا ﴾) يؤسس لاقتراح غريب سيطرحونه، وصولاً إلى قرار جريء سيتفقون عليه، وهو التخلص من أخيهم يوسف.

لذا أرادوا تأكيد الأسباب المؤدية إلى هذا الاقتراح حتى يبدو اقتراحاً مقبولاً، له أسبابه ودوافعه. فبدؤوا بتوكيد أمر محبة أبيهم أخاهم يوسف بمؤكد واحد (﴿ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا ﴾)، ثم صعّدوا الموقف بتوكيدين (﴿إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾) ليأتي عقب ذلك مباشرة قولهم: (﴿ ٱقْتُلُواْ يُوسُفَ ﴾) ولولا ما قدموه من أعذار مؤكدة، غير قابلة للشك (في زعمهم)، ما كان اقتراحهم (قتل أخيهم) أمراً مقبولاً.

من هنا كان لابدّ -وصولاً إلى هذا الاقتراح -من توكيد الأسباب المؤدية إليه!!.

وربّ قائل يقول: إن وجود المؤكد، والمؤكدين في قول إخوة يوسف يدل على وجود متردد أو منكر بينهم، فهل ثمة منكر أو متردد فيما كانوا يسوقونه من أعذار تسول لهم قتل أخيهم؟.

نعم، إن عقولهم تنكر ما تقوله ألسنتهم، وليس أدلّ على ذلك من اعترافهم (﴿ وَتَكُونُواْ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ ﴾). إذاً ما يتفقون عليه وينوون فعله تنكره عقولهم، كونه -باعترافهم- ليس من الصلاح، وجاء هذا على ألسنتهم بإقرار واضح، وتصريح فاضح.

بين سيدنا يعقوب وأولاده لما اتفق إخوة يوسف على إلقاء أخيهم في غيابة الجب، ولم يبق أمامهم إلا إقناع أبيهم بأخذه، ذهبوا إليه و (﴿ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا لَكَ

﴿لَا تَأۡمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ﴾ وفي قولهم هذا مؤكدان: (إنّ -اللام في لناصحون)، فهل يحتاج إقرارهم بالنصح لأخيهم إلى توكيدين؟.

ثم قالوا: ﴿أَرۡسِلۡهُ مَعَنَا غَدٗا يَرۡتَعۡ وَيَلۡعَبۡ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ وهنا جاؤوا كذلك بمؤكدين، فهل يحتاج أمر حفظهم لأخيهم مؤكدين أيضا (إنّ -اللام في لحافظون.

إن مجيء قضيتي (النصح -الحفظ) مقترنتين بالتوكيد يعني أن سيدنا يعقوب عليه السلام كان منكراً للمضمون الذي جاء فيهما، ويبدو أن إخوة يوسف عرفوا ذلك عن أبيهم، وأيقنوا عدم ثقته بهم، فجاؤوه بهذه المؤكدات رغبة في إقناعه بصفاء نيتهم، وصدق ادّعائهم. وليس أدلّ على ذلك من قولهم ﴿مَا لَكَ لَا تَأۡمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ ففيه إقرار منهم بعدم ثقة أبيهم بهم.

فإخوة يوسف كانوا إذاً في معرض الشبهة من وجهة نظر سيدنا يعقوب وقد عرفوا ذلك وأيقنوه فاحتاجوا إلى توكيد خطابهم.

وتأمل رد سيدنا يعقوب على أولاده حين ﴿قَالَ إِنِّي لَيَحۡزُنُنِيٓ أَن تَذۡهَبُواْ بِهِۦ﴾ وجاء هنا بمؤكدين. (إنَّ -اللام في ليحزنني ﴿وَأَخَافُ أَن يَأۡكُلَهُ ٱلذِّئۡبُ﴾ وجاء بالجملة دون توكيد.

فأية دلالة يحملها وجود التوكيد في الجملة الأولى وغيابه عن الجملة الثانية؟.

أكد سيدنا يعقوب حزنه لذهاب إخوة يوسف به، لأحد أمرين:

إما أن يكون ذلك رداً على قولهم ﴿مَا لَكَ لَا تَأۡمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ فأراد بتوكيد الحزن دفع ما ظنوه من عدم الثقة بهم، فأكد لهم أن سبب ذلك إنما حزنه على فراقه لا الخوف منهم عليه. أو أنه أراد أن يؤكد لهم: إن حزني لا بسبب بُعدِهِ عني، بل بسبب ذهابكم به، فذهابكم به هو الخطوة الأولى التي تتيح لكم الإساءة إليه. فأكد حزنه على ذهاب يوسف معهم لأن ذهابه معهم هو الذي سيجلب عليه الحزن والهم. أَوَلم يقل سيدنا يعقوب فيما بعد ﴿إِنَّمَآ أَشۡكُواْ بَثِّي وَحُزۡنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ إنه الحزن

نفسه الذي ذكره -متخوفاً- عند ذهاب يوسف مع إخوته.

سيدنا يعقوب عليه السلام لم يؤكد خوفه على يوسف من أن يأكله الذئب لأنه كان على ثقة بأن ذلك لن يحدث، فسيّدنا يوسف قد اجتباه الله لحمل رسالته، وسيعلّمه من تأويل الأحاديث، ويتم نعمته عليه (حسب تفسير الرؤيا) ولا سبيل إلى ذلك كله إن أكَلَ الذئبُ يوسف عليه السلام، لذا جاء كلامه حول هذا الأمر دون توكيد، وإنما ساق هذا العذر (خوفه على يوسف من الذئب) ليدفع عن أولاده ظنّهم عدم الثقة بهم، لعل هذا العذر يتيح له إبقاء يوسف عنده. والغريب في الأمر أن إخوة يوسف تركوا قضية حزن أبيهم على فراق يوسف (وهي مؤكدة) وردّوا على قضية خوفه من أن يأكله الذئب، التي جاءت دون توكيد فـ(﴿ قَالُواْ لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّآ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴾) وتأمل مؤكدات الجملة:

(لئن) ويرى النحاة أنها تدل على قسم محذوف، و (إنَّ) واللام في قولهم (لخاسرون). وهذه المؤكدات كلها جاءت في معرض الردّ على تخوّف أبيهم من أن يأكل الذئب يوسف، فأفرطوا في توكيد نفي حدوث هذا الأمر حتى يطمئنوا أباهم فيرسل أخاهم معهم.

ولعل في هذه المؤكدات ما يدل على أنهم بيّتوا هذا العذر من قبل، وذلك وقت اتفاقهم على طريقة التخلص من أخيهم، فلما لامس سيدنا يعقوب -بذكره الخوف من الذئب -ما كانوا بينوه في أنفسهم، جاء ردّهم أكثر توكيداً في نفي حدوث هذا الأمر، إذ من غير المعقول أن يتفق إخوة يوسف عليه السلام على كيفية التخلص منه، دون الاتفاق على ما سيقولونه لأبيهم عند عودتهم إلى البيت دون أخيهم، وربما اقتضى البيان الإلهي عدم ذكر اتفاقهم هذا كونه سيأتي فيما بعد في سياق القصة، فلا حاجة لتكراره... والله أعلم.

تأتي لحظة إلقاء يوسف عليه السلام في غيابة الجب، وهو طفل صغير، ويأتي وحي الله مبشراً إياه بالنجاة من محنته (﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا

يَشْعُرُونَ ﴾) وقد جاءت البشرى مؤكدة بقسم محذوف قبل (لتنبئنّهم) دلت عليه اللام الواقعة في جواب القسم، كما جاء الفعل مؤكداً بنون التوكيد الثقيلة، وما هذه المؤكدات في هذا الوقت الحرج إلا زيادة في بث الطمأنينة في نفس يوسف بأن نجاته من محنته أمر كائن لا محالة، وتوكيد الأمر أدعى إلى الثقة والاطمئنان.

ويرجع إخوة يوسف حاملين إلى أبيهم عذرهم ﴿ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبۡنَا نَسۡتَبِقُ وَتَرَكۡنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئۡبُ ﴾، ولئن جاء ذكر ذهابهم للاستباق مؤكداً بـ(إنّ) فإن الجملة ما دون ذلك خلت من المؤكدات. ويبدو الأمر غريباً، إذ كيف لا يكون عذرهم حافلاً بالمؤكدات، في قضية يقف فيها أبوهم موقف المنكر، غير المصدّق، ويقفون أمامه موقف المذنب الذي يحتاج إلى إثبات باطل أتى يحمله!؟.

ذلك نقول: إن إخوة يوسف كانوا واثقين من أن وسائل التوكيد، التي قد يلجؤون إليها في كلامهم، عاجزة عن إقناع أبيهم بما جاؤوا به، ولذلك اتبعوا قولهم (﴿ فَأَكَلَهُ ٱلذِّئۡبُ ﴾) قولهم (﴿ وَمَآ أَنتَ بِمُؤۡمِنٖ لَّنَا وَلَوۡ كُنَّا صَٰدِقِينَ ﴾) أي لن ينفعنا أن نؤكد كلامنا أو نشفعه بالقسم، دعماً لحجتنا وتأييداً لقولنا، لذا (﴿ وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٖ كَذِبٖ ﴾) أي هذا دليل ملموس (حسب زعمهم) لعله -مع نفاد الحجج الكلامية -يقنع أباهم بما يزعمون. وبما أنهم حملوا دليلاً محسوساً، فلا حاجة إذاً لوسائل توكيد القول التي لن تجدي- في هذه القضية-نفعاً أو تؤيد -في هذا الموقف -قولاً.

وجاءت سيارة، وحُمل يوسف عليه السلام إلى مصر، ليباع عبداً، وينشأ في بيت العزيز[٨].

المدلولات النفسية للتكرار القصصي في القرآن الكريم

من ظواهر تكرار القصة في القرآن الكريم، ظاهرة تكرار القصة الواحدة

(٨) موقع جامعة ام القرى:
http: / /uqu.edu.sa /page /ra /140595

في مواضع مختلفة من القرآن وقد أُثيرت بعض المشاكل حول هذه الظاهرة حيث يُقال: إن هذا التكرار قد يشكل نقطة ضعف لأن القصة بعد أن تذكر في القرآن الكريم مرة واحدة تستنفذ أغراضها الدينية والتربوية والتاريخية وقد أُثيرت هذه المشكلة عند الإشارة اليها في مفردات الراغب الأصفهاني[٩] ومن الجدير بالذكر إن القرآن الكريم يشتمل على الكثير من القصص المكررة وفي غير موضع وبأنماط وإشارات مختلفة فمرة يذكر بالتفصيل الدقيق وأخرى بالإشارة العابرة ومرة يسهب لأجل أن تستوعب بما تحمل من دروس وقيم للتذكير وللربط في موضع الآية وبالتالي تكون جزءاً من المفهوم العام للسورة القرآنية.

ومن القصص القرآنية ما لا يأتي إلا مرة واحدة مثل قصة لقمان الحكيم وأصحاب الكهف ومنها ما يأتي مكرراً حسب ما تدعو إليه الحاجة وتقتضيه المصلحة ولا يكون هذا التكرار على وجه واحد بل يختلف من الطول والقصر واللين والشدة وذكر بعض جوانب القصة في موضع دون أخر[١٠].

ومن حكمة التكرار أكثر من فائدة وموعظة وتذكير ويمكن إيجازها بالاتي:

١. بيان بلاغة القرآن في أعلى مراتبها. فمن خصائص البلاغة إبراز المعنى الواحد في صور مختلفة والقصة المتكررة ترد في كل موضع بأسلوب يتمايز عن الأخر وتصاغ في قالب أخر ولا يمل القارئ من تكرارها بل تتجدد في نفسه معان لا تصل له بقراءتها في المواضيع الأخرى[١١].

٢. إن التكرار إنما يكون بسبب تعدد الغرض الديني الذي يترتب على القصة الواحدة إن أهداف القصة متعددة فقد تجيء القصة في موضع لأداء غرض معين وتأتي في موضع

(٩) التبيان: الطوسي ابو جعفر محمد بن الحسن بن علي الطوسي تـ(٤٦٠هـ) ج١ ص١٤.

(١٠) أصول في التفسير: محمد بن صالح العثيمين ص٥٤ -٥٥.

(١١) أصول في التفسير: محمد بن صالح العثيمين ، ص٥٤ -٥٥.

أخر لأداء غرض أخر وهكذا...[١٢].

٣. إن القرآن الكريم اتخذ من القصة أسلوبا لتأكيد بعض المفاهيم الإسلامية لدى الأمة المسلمة وذلك عن طريق ملاحظة الوقائع الخارجية التي كانت تعيشها الأمة وربطها بواقع القصة من حيث وحدة الهدف والمضمون وهذا الربط بين المفهوم الإسلامي في القصة والواقعة الخارجية قد يؤدي إلى فهم خاطئ للمفهوم المراد إعطاؤه للأمة فيفهم انحصاره في نطاق الواقعة التي عاشتها القصة وظروفها الخاصة[١٣].

فتأتي القصة الواحدة في القرآن مكررة من اجل تفادي هذا الحصر والتضييق في المفهوم من اجل تأكيد شموله واتساعه لكل الوقائع والأحداث المتشابهة ليتخذ صفة القانون الأخلاقي والتاريخي الذي ينطبق على كل الوقائع والأحداث...

فضلاً عن فاعليته كمنبه للأمة على القضية الخارجية التي تواجهها في عصر النزول أو بعده بالمفهوم الإسلامي لتستمد منه روحه ومنهجه.

ولعل هذا السبب هو ما يمكن أن نلاحظه في تكرار قصة موسى والفرق بين روحها العامة في القصص المكي وروحها في القصص المدني، فأنها تؤكد في القصص المكي منها على العلاقة العامة بين موسى من جانب وفرعون وملئه من جانب أخر دون أن تذكر أوضاع بني إسرائيل تجاه موسى عليه السلام نفسه إلا من موردين يذكر فيهما انحراف بني إسرائيل عن العقيدة الإلهية بشكل عام وهذا بخلاف الروح العامة لقصة موسى مع بني إسرائيل، وتتحدث عن هذه العلاقة وارتباطها بالمشاكل الاجتماعية والسياسية[١٤].

فقوة الإعجاز القرآني -بايراد المعنى الواحد في صور متعددة مع عجز العرب عن الإتيان بصورة مثلها، فيها

(١٢) مباحث في علوم القرآن: القطاني، ص٣١٨-٣١٩.

(١٣) علوم القرآن: محمد باقر الحكيم، ص٣٦٧.

(١٤) علوم القرآن: محمد باقر الحكيم، ص٣٦٨.

ابلغ التحدي[١٥]. ومن هذا التحدي:

١. الاهتمام بشأن القصة لتمكين دخولها في النفس فإن التكرار من طرق التأكيد وإمارات الاهتمام كما هو الحال في قصة موسى عليه السلام مع فرعون لأنها تمثل الصراع بين الحق والباطل أتم تمثيل مع إن القصة لا تكرر في السورة الواحدة مهما كثر تكرارها[١٦].

٢. إن الدعوة الإسلامية مرت بمراحل متعددة في سيرها الطويل، وقد كان القرآن الكريم يواكب هذه المراحل ويماشيها في عطائه وطبيعة أسلوبه، وهذا كان يفرض أن تُعرض القصة الواحدة بأساليب متفاوتة في الطول والقصر نظراً لطبيعة الدعوة وطريقة بيان المفاهيم والعبر فيها، كما نجد ذلك في قصص الأنبياء حين تعرض في السورة القصيرة المكية، ثم يتطور القصص بعد ذلك إلى شكل أكثر تفصيلاً في السورة المكية المتأخرة أو السورة المدنية[١٧].

الخاتمة:

إن القصة القرآنية تتمتع بحيوية إلهية لم تستنفذ أغراضها فتتفرد بسحر أخاذ لا يشابهه سحر وكأنك عندما تقرؤها تعيش أجواءها وهذا يبين عظمة السارد (جل جلاله) حيث بدت هذه القصة متكاملة الأجزاء رصينة البنيان مملوءة بالإعجاز بليغة التعبير، ولا شك انه كان للتأثير النفسي لبعض المختارات في قصة يوسف عليه السلام وقع خاص يتماهى مع مغزى القصة وسبب سردها، وهذا إن دل على شيء فانما يدل على أنّ هذا البعد ألتعجيزي الذي يفوق الوصف لا يمكن أنْ يوصف إلا انه معجزة يستحيل على أي قاص أو راوٍ أنْ ينظم على منوالها فأنها معجزة.

(١٥) يُنظر: مباحث في علوم القرآن: القطاني، ص٣١٨-٣١٩.

(١٦) المصدر نفسه، ص٣١٩.

(١٧) علوم القرآن: محمد باقر الحكيم، ص٣٦٨.

أهم المصادر والمراجع

القرآن الكريم

- أصول في التفسير: محمد بن صالح العثيمين، دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع، فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية اثناء النشر، ١٤٢٩هـ-٢٠٠٨م.
- التبيان: ابو جعفر محمد بن الحسن بن علي بن الحسن الطوسي، ت٤٦٠هـ، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت.
- دراسة لأسلوب القصص القرآني- قصة يوسف عليه السلام نموذجاً: علي الطاهر عبد السلام، بلا.
- الدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة: اسماعيل حامد خليل، دار الكتاب العربي بيروت -لبنان.
- سيكلوجية القصة في القرآن: التهامي نقرة، تونس، الدار التونسية للتوزيع، الطبعة الثانية، ١٩٨٧.
- علوم القرآن: محمد باقر الحكيم، ط٨، سنة١٤٢٨هـ، مجمع الفكر الإسلامي -مطبعة ظهور قم.
- القرآن والشعر: دلال عباس. بيروت، دار المواسم للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ٢٠٠٠م ١٣٠.
- لسان العرب، ابي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم ابن منظور الافريقي المصري، دار النشر ادب الحوزة قم، ايران، ١٤٠٥هـ، مج: ٢.
- مختار الصحاح: محمد بن ابي بكر عبد القادر الرازي، دار الكتاب العربي بيروت.
- مفردات ألفاظ القرآن: الحسين بن محمد بن المفضل المعروف بالراغب الأصفهاني ابو القاسم، دار القلم، دمشق.
- مباحث في علوم القرآن: مناع القطاني، مكتبة وهبة، ط١١- القاهرة، ٢٠٠٠م.